

2- ألعاب فكرية سخيفة

يرتبط المجتمع الغربي المعاصر بعلاقة حب - كراهية مع المعرفة. فمن ناحية نسعى إليها ونحتفي بها، ونوظف أشخاصاً لاكتساب المعرفة بطروف السوق، ومزاج الأمة، وبكيفية جعل طفلك ذي ثلاث السنوات يتصرف على نحو أفضل. منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وصانعو الآراء يشتمون من أننا ببساطة لا نعرف ما يكفي عن السبب الذي جعل الإرهاب تهديداً عالمياً بهذا الشكل أو لماذا يبدو أن المجتمعات الإسلامية تمقت الغرب. يبدو أنه ليس لدينا عدد كافٍ من الأشخاص ممن يتقنون لغات منطقة الشرق الأوسط. وبصراحة، فإننا قلقون بشأن افتقارنا للمعرفة ونخشى أننا لا نعرف ما يكفي حول ما يجري في أنحاء واسعة من العالم. إننا نأخذ المعرفة على محمل الجد وعلى نحو كبير، كما تؤكد على ذلك عبارات مثل «المعرفة هي القوة».

لكن وفي الوقت نفسه فإن المجتمع لا يرتاح للسعي من أجل الحصول على المعرفة، ولا يثق في كثير من الأحيان بمن يدعون المعرفة. ثمة تشكيك واسع في السلطة العلمية، وأولئك الذين يحاولون توسيع حدود المعرفة العلمية يجدون أنفسهم متهمين بأنهم «يؤدون دوراً مقدساً». وهذه الاتهامات لا توجه فقط إلى الأشخاص العاملين في مجالات إشكالية مثل الأبحاث الوراثية أو تقنيات النانو (الأصغرية)، بل أيضاً إلى أولئك الذين يحاولون اكتساب فهم أفضل للصحة البشرية بشكل



عام. يتعرض علماء الاجتماع الذين يسعون لاكتساب المعرفة «بجد ذاتها» لارتباطهم «بما وراثيات السرد» بالحدة نفسها التي توجه عادة ضد الأبحاث الوراثية. في الماضي كان يقال: إن «مقداراً قليلاً من المعرفة هو أمر خطير». أما اليوم، فيواجه المجتمع تياراً تحتياً يتكون من آراء تقول: إن «قدراً أكبر من اللازم من المعرفة يهدد بقاء البشرية».

إن تعايش شهية لا ترتوي للمعرفة مع تشكك في المزيد من تطورها يمثل إحدى مفارقات الثقافة الغربية اليوم. كما أن الطلب المستمر على الأدلة العلمية يوجد جنباً إلى جنب مع المخاوف حيال ما يمكن أن يقوم به العلماء في مخابريهم. لم تؤدِ الاستثمارات الهائلة في التعليم والجامعات والأبحاث الخاصة إلى ازدهار خطاب علمي، أو ثقافي، أو فكري عام. يبدو أن الأجيال الشابة تشعر بنفور من الرياضيات والعلوم. العدائية والتشكك وليس الفضول الفكري هما اللذان يغذيان المناظرات الدائرة حول هذه الموضوعات. ولم يؤدِ رد الفعل تجاه التجريب والتقدم إلى تأسيس منافذ بديلة لتطوير 'الفضول الفكري'.

في الماضي، كان الشباب عندما يشعرون بالغربة عن العلوم يتجهون إلى الآداب والفنون، أما جيل اليوم من الطلاب فقد تبنى مقاربة براغماتية على نحو خاص، فهو يشعر بالنفور في الوقت نفسه من التاريخ، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والعلوم. في الولايات المتحدة، انخفض عدد خريجي أقسام التاريخ في الجامعات والمعاهد الأميركية بين عامي 1970، و1995، بمعدل 39 في المئة، وعدد خريجي اللغات الأجنبية بمعدل 37 في المئة، وخسرت أقسام اللغة الإنكليزية 10 في المئة

من طلابها⁵⁶. وحدث هذا التراجع في وقت كان عدد طلاب المعاهد يرتفع بشكل مطرد! إن عدم ارتياح الناس للمعارف العلمية الموجودة يضاف إليه إحساس ملموس بعدم المبالاة تجاه المزيد من تطوير هذه المعارف.

غير أن عدم ارتياح الناس لتطوير المعارف لا يعني أنهم توقفوا عن الشعور بالفضول حول كيفية عمل العالم. ثمة شهية كبيرة للغاية لدى الناس تجاه كتب العلوم الشعبية. وتحتل السير الذاتية التاريخية في كثير من الأحيان الصدارة في قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، في حين أن برامج التلفاز التي تعنى بالموضوعات التاريخية والعلمية يمكن أن تحظى دائماً بجمهور كبير من الأشخاص ذوي الفضول المعرفية. عدد كبير من الناس يريدون فعلاً أن يعرفوا المزيد عن العالم. إلا أنه وفي عالم يفتقر فيه السعي لاكتساب المعرفة إلى التوكيد الثقافي، تكتسب علاقة الناس بهذا السعي صبغة سلبية. صحيح أن الناس يشترون كتب العلوم الشعبية، غير أنهم نادراً ما يجتمعون للنقاش والمناظرة بشأن القضايا التي تحتويها هذه الكتب. لقد سعى العديد من الأشخاص لاستغلال الفرص التي توفرها الإنترنت ليتابعوا الأفكار التي تشدهم أو لتعلم المزيد عن الموضوعات التي تهمهم. غير أن هذا التطور المرحب به يدفعه التشكك في المصادر الرسمية للمعرفة بقدر ما تدفعه الرغبة باستكشاف الأفكار الجديدة.

تتأثر علاقة المجتمع القلقة بالمعرفة بالقوى المسؤولة نفسها عن الوضع المتغير للمثقف. لقد تعرضت المكانة الكبيرة التي منحتها الحداثة تقليدياً للمعرفة للتحدي من عدد من المصادر. هناك خيبة الأمل بوعود الحداثة والتنوير؛ والإحساس بالضعف الشديد فيما يتعلق بالقدرة على



الانبؤ بالمستقبل، وتنامي تأثير مقارنة نسبية للمعرفة؛ واستبدال السعي نحو المعرفة بالتركيز البراغماتي على المعارف الجزئية المتخصصة.

التحرر من وهم إرث التنوير

منذ البداية تعرض التنوير للعداء والنقد. وكان خصوم التنوير متشككين جداً من الادعاء بأن القدرة البشرية على التفكير العقلاني يمكن أن تضمن التقدم المستمر وتحسين الظروف الحياتية. ومنذ البداية كان أنصار التنوير يُتهمون بأداء دور مقدس. رفض الفلاسفة المتدينون والمحافظون الاحتفاء الإنسانوني المتفائل بالقدرة على المعرفة بوصفه مشروعاً شريعياً يهدف إلى تقويض مملكة المقدس. وكان معارضو التنوير يعتقدون أن العقلانية تحط من قيمة الأواصر الروحية التي تربط الناس بالله وبتراثهم ومجتمعاتهم. وساد شعور بأن أي إستراتيجية لإحداث التغيير العقلاني لا بد أن تقوض التوازن الحرج، وتجعل الأمور أسوأ دون ريب.

تعرضت العقلانية للهجوم بسبب الاعتقاد بأنها تتناقض مع ازدهار الروح البشرية. ادعى نقاد التنوير أن المكانة المتميزة التي أسبغت على العقل همشت البعد الروحي والأخلاقي للحياة. وحُملت النزعة الداعية لتشجيع العقل والتفكير العلمي المسؤولية عن تراجع الدين، ومن ثمّ عن خلق فراغ روحي وعاطفي. وأوحى البعض بأن ضياع أشكال اليقين الروحي الذي كان سائداً في الماضي كان مسؤولاً عن تنامي التعصب والشمولية. طبقاً لكونور كروز أوبرايان، فإن التنوير أوجد

«فراغاً عاطفياً» ملأته القومية. وهكذا فإن الحرب المريرة التي تبعت والتي شملت أوروبا يتم تمثيلها على أنها الإرث غير المباشر للتنوير، وقبل أن يتم تقديم أي مناقشة لاستعمال العذر المخفف، يصر على أن «المسؤولية، وبالرغم من كونها غير مباشرة، إلا أنها حقيقية بالرغم من ذلك عبر خلق ذاك الفراغ العاطفي الكوني»⁵⁷.

كان الدافع في اتجاه القلق حيال السعي لاكتساب المعرفة والعقل هو الاعتقاد بأنه سيقوض التوازن الموجود بين الفئات المختلفة في المجتمع. كان المفكرون المعادون للتنوير يعتقدون بصدق أن المعرفة خطيرة؛ لأنها تهدد بإضعاف الإيمان والمعتقدات التي ساعدت في منع الجماهير التي تكون غير عقلانية دون الإيمان والمعتقدات، من تقويض المجتمع بأسره. وساد شعور بأن قدراً أكبر مما يجب من التعليم والمعرفة يمكن أن يسهم في إشاعة عدم الاستقرار؛ لأن ما كان يبقي الجماهير هادئة هو الدين واحترام السلطة. ولذلك فإن الكثيرين ممن كانوا يدافعون عن التراث كانوا يخشون من تقدم العقل. كما شرح الفيلسوف المحافظ جوزيف دي ميستر: ينبغي أن يحاط مهد الإنسان بالعقائد، وعندما يستيقظ عقله، ينبغي أن يجد أن جميع آرائه قد صيغت، على الأقل تلك المتعلقة بسلوكه الاجتماعي. لا شيء أكثر أهمية للإنسان من التحامل⁵⁸.

في هذا الخيال المعادي للجدائة، كانت العقائد والتعامل ترتبط بشكل مباشر بفرض النظام والمحافظة على التلاحم الاجتماعي. وعلى النقيض من ذلك، فإن المعرفة والعقل كانا يشيران إلى عدم اليقين، والتشوش والاضطراب وعدم الاستقرار.



جدير بالذكر أن رد الفعل المعادي للتنوير في القرن التاسع عشر ظل أقل أهمية من الإحساس الطائفي بالديناميكية والتقدم. بوجه عام فإن حماسة الجماهير للعلم، والاعتقاد العام بقوة العقل والتقدم، شجعت التوصل إلى تقويم ثقافي إيجابي للمعرفة. في مثل تلك الظروف كان التجريب، والتغيير وحتى التطور تقسّر في كثير من الأحيان على أنها أعراض للتقدم التاريخي، كما كتب وليام وردزورث احتفاء بالثورة الفرنسية: إذا كنت حياً ذلك الفجر فتلك نعمة كبرى، إذا كنت شاباً فذاك النعيم يحد ذاته.

اليوم، تبدو أفكار وردزورث غير منسجمة مع المواقف الاجتماعية حيال التغيير. يتسرب الخوف من التغيير إلى كل وجه من وجوه الفكر الاجتماعي. وعزز من الوجود الضاغطة لهذه العاطفة الصورة الطاغية للفشل والمرتبطة بالمحاولات السابقة لإجراء تحولات اجتماعية. والاستنتاج الذي تخلص إليه معظم التعليقات هو أن محاولات تغيير المجتمع تؤدي إلى وضع أسوأ مما كان موجوداً من قبل. ويدعى بأن محاولة وضع سياسات عامة مرتبطة بالعقلانية قد جعلت الأوضاع أسوأ كثيراً. يتم شجب المعارف والأفكار وخصوصاً الإيديولوجيات المرتبطة بالتنوير على أساس أنها مسؤولة عن الدمار الذي لحق بالناس في القرن العشرين. لقد جادل أحد كتاب الأعمدة السياسية البريطانيين بأن الإيديولوجيات التغييرية ألحقت ضرراً كبيراً بقرنتنا وأدت إلى موت الملايين⁵⁹ تشكل هذه الملاحظة صدى لتلاشي سحر تراث التنوير.

لقد أصبحت النزعة للحد من إعمال العقل سمة طاغية للحياة الفكرية الغربية. في مسح أجري مؤخراً حول الموضوع، كتب عالم الاجتماع الأميركي المعروف جيفري أليكساندر حول «سعة انتشار اللاعقلانية في كل مكان». طبقاً لأليكساندر، «فقد أصبح وجود العقل محسوساً كوجود صدفة فارغة، وأصبح التقدم أمراً غير مفهوم، وفي كثير من الأحيان غير مرغوب»⁶⁰. حتى أنصار التنوير يجدون من الصعوبة الترويج لنظرة متماسكة إلى العالم راسخة في قيم العقل والتقدم. إن أفضل سيناريو يقدمه كتاب موريس بيرمان، أفول الثقافة الأميركية هو ذلك «الذي يكون فيه نهضة، ومحافظة على ثقافة التنوير، ونقلها لكن لنخبة قليلة فقط، وحيث يكون أثرها على ما تبقى من أوجه الثقافة غير موجود تقريباً»⁶¹.

إن رد الفعل ضد العقل اليوم أقوى كثيراً من أي وقت مضى منذ ظهور الرأسمالية. في القرن التاسع عشر، لم تشكل الثورة الرومانسية ضد العقل بإمكانية المعرفة، بل إنها شككت فقط في أحد أشكال المعرفة المتمثل في المعرفة العقلانية. أما اليوم، فإن إمكانية المعرفة بحد ذاتها أصبحت عرضة للتشكيك من قبل الأشخاص الذين يدّعون أن العالم قد أصبح أكثر تعقيداً مما يمكن فهمه.

كما يمكن فهم رد الفعل ضد التنوير على أنه رفض لسلطة المعرفة. تستعمل المجادلة القائلة بمحدودية المعرفة الإنسانية على نحو دائم للحط من شأن محاولات تحسين الظروف الاجتماعية عبر السياسات العامة أو التقدم العلمي. إن الحط من قيمة العقل والفهم يبرر



الممارسات السياسية التي تستند إلى التشكك في السلطة الفكرية، والعلم والمعرفة. في العقود الماضية رُوِّج لهذا الموقف بحماسة أشخاص على يمين الطيف السياسي. جادل مفكرون غير عقلانيين، مثل نيتشه وشوبنهاور، بأن الجهل وليس المعرفة هو ما يميز الطرف الإنساني. التاريخ بالنسبة لهم، كانت الفوضى، والمصادفة فيه أكثر أهمية من المعنى. كما كان عدم الارتياح تجاه التفكير العقلاني واضحاً أيضاً بين العديد من مؤسسي العلوم الاجتماعية وأبرز المشتغلين فيها.

كان ماكس ويبر، الذي يبقى حتى اليوم أحد أكثر علماء الاجتماع تأثيراً، يعتقد أن هناك قيوداً مهمة على أعمال العقل. وكان يتبنى وجهة النظر القائلة: إن العقل كان ذا فائدة محدودة في فهم القيم. وكان ويبر يعتقد أن العلم يتمتع بوجود مؤقت على نقيض الأثر الدائم للفن. وكتب أنه «في العلوم، يعرف كل منا أن ما حققه سيصبح قديماً في عشرة أو عشرين أو خمسين عاماً»⁶². وكان الدافع إلى الدور المحدود الذي عزاه ويبر للتفكير العقلاني هو شكوكه حول إمكانية المعرفة. أما اليوم، فإن ما يغذي الانتقادات التي يتعرض لها التفكير العقلاني هو على الأرجح «الخوف من المعرفة». ثمة كتابات فكرية مؤثرة تدعي أن عقلانية التنوير مسؤولة عن بعض أكثر الأحداث تدميرية في التاريخ البشري في حين تُرفض التجربة الحداثية في كثير من الأحيان بوصفها تجربة تدميرية أتت المحرقة اليهودية نتوجاً لها. طبقاً لإحدى الروايات فإن محاولة إبادة الشعب اليهودي كانت «تمريناً في الإدارة العقلانية للمجتمع»⁶³ وتقدم هذه الفرضية «تشجيع التفكير العقلاني» على أنه

قضية قاسية وحيادية أخلاقياً تجاه قدسية الحياة، ولذلك فهو يمتلك قدرة على «توليد الحلول الشبيهة بالبحرقة»⁶⁴.

اليوم لا تأتي أكثر أشكال شجب التنوير مرارة من اليمين، بل من الأصوات الراديكالية التي تعتقد أن مجرد السعي لاكتساب المعرفة من خلال العلم، والتكنولوجيا والابتكار يشكل تهديداً للعالم. ويشير هؤلاء إلى أحداث مأساوية مثل المحرقة كدليل على التهديد الذي يمثله السعي الحثيث لاكتساب العقلانية والمعرفة. أما الفكرة القابلة أكثر للتصديق التي تربط المحرقة بانتصار عدم العقلانية والفشل بتطوير القدرات الكامنة لتراث التنوير فيتم إهمالها يا للأسف! بدلاً من ذلك فإن القدرة الكامنة لإطلاق قوة الدمار تطفئ على الخيال المعاصر. إن القدرات التدميرية، لا الإبداعية للمعرفة هي التي تصوغ الخيال العام اليوم.

إحساس بالعجز في وجه انعدام اليقين

لقد قلّصت خيبة الأمل بوعود التنوير ثقة الجمهور في قدرة المجتمع على معرفة وفهم المستقبل والتحكم به في نهاية المطاف. إن وجهة النظر القائلة: إننا نعيش في عالم على درجة من التعقيد، بحيث تجعل ادعاء المعرفة غير ذي معنى هي وجهة نظر يروج لها بشكل منهجي منتقدو الحداثة الراديكاليون. كما يشعر النقاد بالقلق من أن تقدّم المعرفة بحد ذاته تنتج عنه مشكلات؛ لأنه يهدد بتشجيع نشاط وسلوك لا يمكن معرفة تبعاته مقدماً. ويجد هذا الموقف تعبيراً قوياً في الرأي القائل: إن أحد منتجات العلم والمعرفة يتمثل في المخاطرة.



يجادل عالما الاجتماع البارزان أولريك بيك وأنتوني غيدينز بقوة بأن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الإحساس بالمخاطرة وزيادة المعرفة. كتب غيدينز أن «العديد من حالات عدم اليقين التي تواجهنا اليوم نشأت عن ازدياد حجم المعرفة». ولاحظ بيك أن «مصادر الخطر لم تعد متمثلة في الجهل بل في المعرفة»⁶⁵. وطبقاً لهذا السيناريو فإن المعرفة عبر تطبيقاتها تنشئ مخاطر جديدة ووعياً بمخاطرها. إن الادعاء بأن المشكلة لا تكمن في الجهل، بل في المعرفة، إذ يشكك بشكل أساسي في سلطة العلم. إن التفضيل الضمني للجهل على المعرفة يمثل تنوعاً معاصراً على الدعوة المحافظة إلى التحامل في القرن التاسع عشر. في كلتا الحالتين، ينظر إلى المعرفة على أنها غير مرغوب فيها بسبب آثارها التهديدية والتشويشية.

يستند ربط المعرفة في المخاطرة بنموذج للمجتمع لا يرتاح للتغيير وعدم الاستقرار، ويشعر باستمرار بالتهديد من التطور التقني. إن مجتمعاً كهذا يشعر بتقدم المعرفة كمصدر للقلق والتشوش. وفي هذه الأيام، تشكك المجالات التي تربط المعرفة بالمخاطر ضمناً بالمقدرة الإنسانية على المعرفة. ثمة ادعاء بأنه ليس بوسع المعرفة الإنسانية أن تحيط بالأنماط الفوضوية للأحداث التي أطلقتها الرأسمالية، وإصرار على استحالة معرفة أو حساب التبعات المترتبة على التقانة والفعل الإنساني. ما يبرر هذه النظرة هي المجادلة بأن التطور التقني في بيئة معولة قد أصبح معقداً جداً، بحيث يقوض أسس فهم المستقبل. نتيجة لذلك يدعي عالم الاجتماع الألماني نيكولاس لوهمان أن «لا أحد في موقع

يمكنه من الادعاء بمعرفة المستقبل أو القدرة على تغييره» 66. بالنسبة لوهمان، فإن المعرفة تقتصر على تقديم تبصرات إلى ما حصل في الماضي، وحتى عندها فإن تلك التبصرات تكون محدودة.

في كثير من الأحيان، تجري عملية إعادة صياغة مفهوم المخاطرة على أنه عدم قدرتنا على المعرفة. وموضع الجدل هنا ليس فقط عدم المعرفة، بل استحالة المعرفة. إن ربط المعرفة بالخطر المحتمل يستند إلى منظور فكري شديد العداء للإنسانونية. وطبقاً لهذا النموذج، فإن العلم والمعرفة كليهما يتمتعان بقدرة محدودة على الوصول إلى الحقيقة؛ ولأنهما يطلقان ابتكارات ذات آثار غير مقصودة، فإنهما يتسببان في مشكلات أيضاً. تشكل هذه النظرة بدرجة كبيرة عبر التجربة السلبية للتغيير السياسي في القرن العشرين. يتم تفسير فشل التجربة السياسية في الاتحاد السوفييتي والصين، وخيبة الأمل من سجل دولة الرفاهية وزوال سحر وعود التنوير على أنه دليل مباشر على أن البرامج السياسية الطموحة لا تجدي نفعاً؛ ومن ثم فإن مثل هذه التجارب السلبية تؤكد أننا ببساطة لا نعرف كيف نعرف. وهكذا يتم الحط من قيمة سلطة المعرفة بدرجة أكبر.

إن الانشغال بعدم اليقين والمخاطرة لا يؤدي بشكل واضح لرفض المعرفة؛ بل إنه يساعد على تعزيز مزاج يعطي للمعرفة دوراً دفاعياً بشكل رئيس. من هذا المنظور التحوطي. يفترض في المعرفة أن تتكيف مع المناخ السائد المتمثل في القلق وانعدام اليقين. لقد أدى الإحساس بالضعف وانعدام الحيلة الذي يحيط بالنظر إلى التغيير إلى إضعاف



إيمان الناس بإمكانية معرفة القادم من الأحداث، حيث ينعكس ذلك في المطالبة بأن «لا يسبق العلم الرأي العام»، وفكرة أن روح الحذر ينبغي أن تحدد السرعة التي تتطور بها المعرفة. لقد كان تطور المعرفة دائماً عرضة لمخاوف براغماتية، إلا أن هذه المخاوف بدأت تكتسب اليوم محوراً دفاعياً؛ ولأن سلطة المعرفة تعرضت للمساومة عبر التجربة، فإن المجادلة بالسماح بالسعي للحصول عليها لمجرد الحصول عليها أصبحت أقل إقناعاً مما كانت عليه في أزمنة سابقة.

النسبية: التشكيك في ادعاءات المعرفة

ما يعزز الإحساس بالضعف وانعدام الحيلة في وجه انعدام اليقين هو الشعور بأن المعنى والحقيقة عصيان على إدراكنا. في الواقع فقد ساعد تشوش الاتجاه والقلق المتولدان عن عدم اليقين في تعزيز مزاج يرحب بالتشكيك المستمر في المعرفة والحقيقة. تلتقي ردود الفعل هذه مع الازدراء المعادي للتنوير لفكرة الحقائق المطلقة. في القرن التاسع عشر، كان مشروع تسيب المعرفة مصمماً لحماية التراث من ادعاءات العالمية. سعت النسبية الثقافية لحماية الدين والأخلاق والقيم التقليدية مما كان يعتقد أنه التهديد الذي يشكله العلم، والحقائق الموضوعية والقيم العالمية. طبقاً لخصوم التنوير فقد كان للمجتمعات المختلفة أساليب مختلفة في فهم العالم، وكانت قيم هذه المجتمعات ناتجة عن ظروفها الخاصة. وبات يُدعى بأن كلاً من هذه المناظير المختلفة يتمتع بالمشروعية نفسها ويقدم وسيلة أفضل لفهم العالم مما يسمى العالمية المجردة للتنوير.

منذ ستينيات القرن العشرين، نجحت النسبية الثقافية في أن تصبح قوة فكرية فاعلة. وشجع زوال سحر التنوير العديد من المفكرين وشرائح من الجمهور على فهم حياتهم عبر مناظير خاصة بكل منهم. أثبتت النسخة الكاريكاتيرية التي اعتنقتها مؤسسات المجتمع الغربي بأنها أضعف من أن تقاوم الروح القوية التي انبثقت من زوال سحر التنوير التي سادت في النصف الثاني من القرن العشرين⁶⁷. تمثلت إحدى تبعات هذه العملية بأنها وضعت سلطة الحقيقة الموضوعية في موقع دفاعي - وبذلك وضعت ادعاءات الحقيقة كافة موضع تشكيك.

في حين كانت معظم الانتقادات الموجهة للنزعة العالمية تصدر عن اليمين في الماضي، أصبح اليوم اليسار الثقافي هو الخصم الأكثر عدوانية. منذ أواخر القرن الثامن عشر، ارتبطت مفاهيم مثل العقل، ولتقدم، والعالمية بشكل عام باليسار، لكن منذ الستينيات، بدأ اليسار الجديد عملية منهجية لهدم تلك القيم بالتشكيك في ادعاءات العقل، والتقدم والعالمية. انعكس الموقع الفلسفي الجديد في المقاربة السياسية التي احتفت بالتنوع وعارضت القيم العالمية⁶⁸. على عكس نقاد التنوير في القرن التاسع عشر، لم يكن اليسار الجديد، في أصله، مدفوعاً بنزعة محافظة للدفاع عن التراث. لكن ولأن الرأسمالية الغربية قدمت قيمها على أنها عالمية، فإن اليسار الجديد بات معارضاً لها دون تفكير. له يكتفِ اليسار الجديد برفض العالمية بشكل عام؛ بل إنه تبنى رؤية خاصة للعالم ترتبط بسياسات الهوية. انطوى رد فعل اليسار الجديد

على الرأسمالية الغربية في مرحلة ما بعد الحرب، لا شعورياً، على تمثل لأساليب ومجالات رد الفعل المحافظ على التنوير.

في أثناء الستينيات، كان غرام اليسار بالنسبة متردداً وشبه واعٍ، لكن بحلول أواخر السبعينيات، بات المفكرون الراديكاليون، وعلى نحو أكبر، الراديكاليون السابقون، يتحدثون لغة نيتشه. في عملية وصفها الآن بلوم «بنتشنة اليسار»، انعطف اليسار، الذي نقرته الحداثة، إلى الخصوصية، والتنوع والاختلاف. من المهم أن نتذكر أن التوجه المنهجي الأصلي نحو الاختلاف بدأ على شكل دفاع عن الامتيازات التي تتمتع بها الأرستقراطية والطبقة الحاكمة. وذكّرت الاختلافات في القدرات الأخلاقية والعقلية لتبرير وشرعنة التراتبية الاجتماعية. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، ربط هذا المنظور نفسه بالاختلافات العنصرية وساعد في شرعنة فكرة وجود تراتبية عالمية للبشر. لم يحاول اليسار الثقيل، كما فعل الداروينيون الاجتماعيون، توفير المبررات الفكرية للفوقية العنصرية. غير أن الإمكانيات المحافظة الكامنة لمبدأ الخصوصية تتبلور على شكل يسار في النزعات العالمية والكونية، ومع تحول التمرد ضد خطاب العالمية إلى احتفاء بالاختلاف، أصبحت عملية نزع الصبغة الراديكالية عن النشاط الفكري نتيجة حتمية. وتجلت حصيلة ذلك فيما سمي ما بعد الحداثة وإنكارها المنهجي لوجود المعرفة الموضوعية.

واليوم تسير ما بعد الحداثة على المسار الذي خطه رد الفعل المعادي للتنوير في القرن التاسع عشر. يدّعي هؤلاء أن أشكال المعرفة كافة ذات

تشكيل اجتماعي؛ ولذلك فإن المعارف كافة غير قابلة للقياس، وأن 'معارف كافة مشروعة من حيث المبدأ. وتعتمد الحقيقة بشكل كامل على المنظور المتبنى. ويدّعي ما بعد الحداثيين في الغالب أن ليس هناك طريق واحد يؤدي إلى الفهم. ويتسع هذا الإجراء أيضاً ليشمل المنهج، حيث يمكن الوصول إلى الحقيقة بطرق مختلفة. ويمثل التوسع في تفصيل نسبية المنهج إحدى الخصائص المميزة لما بعد الحداثة. ويستند إلى الاعتقاد الرومانسي بأن الطريق إلى الفهم يمر بالذاتية، وبالحَدَس على نحو محدد. توسع ما بعد الحداثيين في شرح هذه الفكرة للقول: إنه نظراً لوجود عدد من الحقائق، وليس حقيقة واحدة، فإن هناك أيضاً عدة طرق مشروعة للوصول إلى تلك الحقائق. وي طرح ذلك أيضاً أن أولئك الذين يعيشون تجربة معينة هم الأقدر على فهم تلك التجربة. ويدّعي بعضهم بأنهم وحدهم القادرون على التعليق على تجاربهم الخاصة.

نادراً ما يتم التعبير صراحة عن النسبية المنهجية. ويتخذ هذا التعبير بشكل عام شكلاً سجالياً في توجيه الاتهام بالإمبريالية الثقافية أو المركزية العرقية في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، ثمة طرح بأن كتابة تاريخ السود هو من حق السود أنفسهم دون غيرهم. وفي أثناء العقود الثلاثة الماضية، احتكر عدد من المجموعات براءة استكشاف أرواح السود، وباتت طريقتهم الفريدة في المعرفة تمثل صك شرعية معرفتهم. ومن بين المجموعات كافة، فإن النسوية الأكاديمية هي التي تمتلك أكثر الأنظمة المعرفية ذات الخصوصية تفصيلاً. كرد فعل

على الرؤية الذكورية للعالم، تحاول بعض النسويات المتخصصات في الدراسات الثقافية طرح رؤية أنثوية للعالم.

ويعيد كتاب كارول كيليفان، طريقة المرأة في المعرفة بشكل واضح عن هذه النزعة باتجاه جمع التجربة الشخصية مع المعرفة. إضافة إلى ذلك، وكما يكتب نوفيك، «بالنسبة للعديد من النسويات فإن أيديولوجيا «الاختلاف» اتسعت لتشمل أسئلة جوهرية تتعلق بالأساليب والقيم المعرفية»⁶⁹.

تقوم المنظرات النسويات بتحويل خصائص أنثوية محددة إلى مجردات من أجل إيضاح وتفصيل منظور المرأة إلى الأشياء. من نافذة القول: إنه، من هذا المنظور الحصري، يمكن للنساء فقط أن يعرفن النساء. يذكرنا نوفيك أنه «وبحلول أواخر السبعينيات لم يعد الادعاء القائل: إن تاريخ النساء يمكن أن يكتب على نحو مشروع من قبل النساء ومن وجهة نسوية فقط موضوعاً للجدل؛ بل أصبح مسألة مستقرة غير قابلة للنقاش»⁷⁰.

تفترض إدانة «العقلانية الغربية» أو «المنطق الذكوري» أن التنظير والمعرفة يساويان التجربة. يستند هذا المنظور إلى زعم مفاده أن الطريق إلى الحقيقة يمر قبل كل شيء عبر التجربة الذاتية وليس عبر التنظير أو التأمل. لكن أن يكون المرء أسود أو أبيض أو معوقاً أو يابانياً لا يضيف مكانة متميزة تتيح الوصول إلى معرفة التجربة. كما يجادل ماتيك بإقناع، فأن يكون الفرد جزءاً من ثقافة لا يمكنه من تحقيق فهم أفضل لتلك الثقافة من فهم أولئك الذين يدرسونها من الخارج. ويكتب أن «المشاركين

في ثقافة ما، حتى عندما يمكن أن يعرفوا (وفي الواقع عليهم أن يعرفوا) القواعد والمعايير التي تنظم السلوك الاجتماعي في تلك الثقافة، فإنهم قد يمتلكون فقط فكرة غامضة جداً عن الكيفية التي ترتبط عبرها الأجزاء المختلفة للحياة الاجتماعية التي يشاركون فيها». وكي يعزز حجته، يقتبس مايتيك فريتز ماشلوب في تقديمه لعالم أنثروبولوجيا قادم من المريخ يراقب سوق الأسهم ويلتقي بالمشاركين فيه.

حيث إن 999 من كل ألف شخص يشاركون في سوق الأسهم لا يعرفون فعلياً ما تفعله السوق وكيف تفعله، فإن أكثر المراقبين اجتهاداً سيبقى جاهلاً إلى حد بعيد لطبيعة ما يجري فيها بالرغم من التقائه بعدد كبير من المشاركين. وبالأسف! فإن علم الاقتصاد لا يمكن تعلمه بالمراقبة أو بإجراء المقابلات مع الأشخاص المشاركين في الأنشطة الاقتصادية. يتطلب الأمر الكثير من التنظير قبل أن يتمكن المرء من فهم التفاعلات المعقدة في نظام اقتصادي معين⁷¹.

إن الملاحظة، كالتجربة، تبقى غير ذات معنى خارج إطار النظرية. إن القدرة على تقديم عرض سليم لكيفية عمل سوق الأوراق المالية لا يشترط بالضرورة أن يكون المرء موظفاً فيها؛ بل إن شخصاً يتمتع بمعرفة جيدة لنظرية الحياة الاقتصادية أقدر على فهم التفاصيل الدقيقة والمتشابكة لعمل سوق الأوراق المالية.

إن النزعة لمساواة المعرفة بالتبصرات التي يكتسبها الأشخاص عن التجارب المجزأة تجعل من المستحيل التوصل إلى معيار عام ذي

معنى لتقويم ادعاءات المعرفة. عبر تحويل المعرفة إلى معارف، فإن دور المثقف يمكن تفسيره بوصفه مجرد وجهة نظر أخرى لا تتطوي على أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع. ولم يقتصر تأثير هذه النزعة على المثقفين فقط؛ بل إن النزعة المتنامية في اتجاه نسبية ادعاءات المعرفة، كان لها أثر كبير على النظريات والممارسات التعليمية. يعد العديد من القائمين على التعليم اليوم التعلم عبر التجربة موازياً من حيث المكانة للمعرفة النظرية.

لقد أسهمت عقيدة النسبية الثقافية في ازدهار النظريات التعليمية التي تشجع موقفاً فلسطينياً من المعرفة. ولقد أصبح التأثير ما بعد الحداثي على نظرية التعليم واسع الانتشار اليوم. ويتم إعادة تدوير التشكك ما بعد الحداثي في وجود معايير عالمية في المدارس في أثناء انتقاد أنظمة التقييم التي تستند إلى معيار عام. يجادل بعض ما بعد الحداثيين من القائمين على التعليم بأن المعرفة بحد ذاتها - هي عقلانياً وموضوعياً مجرد تحامل ذكوري. يجادل ديل سبندر واليزابيث سارة بأن الخبراء الذكور قاموا ببناء «المعرفة التعليمية، بحيث يتحكمون فيمن ينجح ومن يرسب. وبدلاً من «المعرفة التعليمية»، يدعو هؤلاء النقاد المؤثرون إلى الاعتراف «بالمعرفة الشخصية» ويجادلون بأن «كل شخص يمتلك معرفة شخصية مشروعة، وما من طريقة لتصنيف هذا»⁷².

في المدارس، أضفي على التجربة الذاتية للأطفال قدر كبير من السلطة. ومن هذا المنظور، فإن الدور المعطى للمدرس ليس تعليم

المعرفة الموجودة خارج هذه التجربة، بل رعاية وتظهير التبصرات التي يملكها الطفل أصلاً. وكما يجادل أحد نقاد هذا التطور، فإن «إعادة تعريف المعرفة على أنها التجربة الذاتية للطفل ترتب عليها تحوّل من التركيز على المدرّس إلى التركيز على المتعلم»⁷³. ويتم التركيز بشكل منهجي على الاحتفاء بالتجربة الخاصة للأطفال في الكتب المدرسية التي تطفئ عليها روح تقديم ما يعود بالفائدة العملية على المتعلم. يبدو أنه لا ينبغي مواجهة الأطفال بصور وأفكار غريبة عن تجربتهم. وفي موضوعات مثل التاريخ والأدب، «يتم تقديم المساعدة عبر «تحديث» القصص الكلاسيكية لمساعدة الأطفال على فهمها».

لكن ما هي بالتحديد المعرفة الشخصية؟ إنها ما يتعلمه الأطفال عبر تجربتهم الشخصية. المعرفة الشخصية، بالنسبة للأطفال، هي ما يتعلمونه في بيوتهم، ومن أترابهم ومن وسائل الإعلام. توفر هذه المعرفة الشخصية للأطفال تبصرات قيمة حول العالم، لكنها لا تقدم لهم التعليم الذي يمكنهم من التشكيك، وصيانة المفاهيم، وحل المشكلات والتطور فكرياً. تفشل المعادلة التي تساوي بين «المعرفة الشخصية» و«المعرفة التعليمية» في التمييز بين التجربة الاعتبائية للطفل والمحاولة المنهجية لتطوير إمكانياته الكامنة.

إلا أن الخط الفاصل بين المعرفة والتبصرات اليومية أصبح في أقل حالاته وضوحاً في النظام الجامعي. كثيراً ما يحاول المدافعون عن توسيع المشاركة إضعاف سلسلة المعرفة الفكرية؛ بغية تيسير الوصول إلى التعليم العالي. ويتم تبرير هذه المقاربة على أساس أنها تركز في التعليم على الطلاب بدلاً من التركيز على المواد الدراسية.



وتتمثل إحدى الطرق التي يسعى أنصار هذه السياسة عبرها إلى تحقيق أهدافهم في اعتمادية التعلّم السابق، حيث تتم مكافأة الطلاب فعلياً على ما يتعلمونه من تجاربهم في الحياة قبل وصولهم إلى الجامعة. من هذا المنظور، فإنّ التبصرات التي يتم اكتسابها من الروتين العادي للحياة اليومية تماثل من حيث الجودة المعرفة المكتسبة عبر الدراسة المنهجية.

لا يقتصر دعم الاعتراف «بالمعرفة الشخصية» على المنظرين ما بعد الحداثيين، بل باتت مجالس الامتحانات الحكومية والعديد من الجامعات تقبل اليوم اعتماد المعارف السابقة بوصفها أداة مفيدة في التقويم. وتعطى التجربة الشخصية قيمة أكاديمية ويُقبل أرباب الأسر في البرامج الدراسية؛ لأنّ خبراتهم في مجال تخطيط الموازنة، ومهاراتهم التنظيمية وقدرتهم على التواصل تعادل دراسات في التواصل يمكن على أساسها دخول الجامعة. يشرح أحد المدافعين عن الاعتماد الأكاديمي للتعلّم السابق هذه المقاربة على النحو الآتي:

يستند التبرير الذي يساق عادة لاستعمال التعلّم من الخبرة إلى الافتراض بأنّ الناس تعلموا، ويستمرّون في التعلّم عبر تجاربهم العملية والحياتية. إنهم ينقلون هذا التعلّم معهم إلى التعليم العالي، ولذلك يمكن الاعتراف به عبر عملية التقييم المناسبة. وهذا يتطلب المنهجية من حيث المعارف والمهارات المحددة، وهي عملية يعتقد أنها تتطلب التأمل. في الواقع فإنّ المادة الأولية للتجربة

الذاتية يتم تحويلها إلى بيانات «موضوعية» بحصائل التعلم⁷⁴.

يتم تدوير الدروس المستقاة من مدرسة الحياة بوصفها معرفة عبر العملية الإدارية المتمثلة في إخضاعها لحصائل التعلم. لو اقتصر الأمر على جرعة صغيرة أخرى من الاعتمادية، لما كان هناك حاجة للتعليق على ذلك. إلا أن عملية إضفاء السلطة على التعلم السابق يقلل من قيمة المعرفة الحقيقية. قد تكون دروس الحياة مثيرة للاهتمام ومفيدة للشخص المعني لكن، وحتى في أفضل الحالات، فإن التأمل في التجربة الفردية يكون اعتبارياً، وشخصياً، ومحدداً للغاية، بحيث تنقلص احتمالات توليده للمعرفة التي يمكن أن تقدم معنى وفهماً للناس في المجتمع. يتم إنتاج المعرفة في كثير من الأحيان عبر فصل الناس عن تجربتهم المباشرة، بحيث يتمكنون من تجاوز ظروفهم المحددة وعبر موقعهم المنفصل يتعلمون توظيف التبصرات التي يولدها المجتمع بأكمله.

إن الحط من قيمة سلطة المعرفة ليس أثراً جانبياً للنضال من أجل اعتماد التعلم السابق. وأولئك الذين يدعمون قضية توسيع الوصول إلى التعليم الجامعي لا ينظرون بكثير من الاحترام إلى المعرفة المكتسبة عبر الدراسة المنهجية والبحث والتجريب المنهجين. إنهم لا يعتقدون فقط أن المعرفة هي مجرد تركيب اجتماعي؛ بل إنها تستعمل لتعزيز الامتيازات النخبوية. وهذه النظرة معادية بوجه خاص لسلطة الأبحاث البحثية؛ إذ إنها «تحتل موقعاً متميزاً وتمثل محدداً مهماً للمكانة،



ولتوزيع الموارد والمواقف والتوجهات العامة». إضافة إلى أنها «تسهم في الإقصاء على أساس الحاجة إلى المحافظة على أعلى «المعايير» في البحث وتحيل التركيز على الطلاب إلى مكانة متراجعة على سلم الأولويات»⁷⁵. وحيث إن منتج الأبحاث البحتة لا يتوافر بسهولة لمعظم الناس، فإن أولئك الذين يعتقدون عقيدة توسيع الوصول إلى الجامعة إلى أكبر حد ممكن يعدونها مجرد عقبة تقف في طريق تحقيق النصر لقضيتهم. ولهذا السبب يمكنهم ببساطة أن يستخفوا بالإنجازات الفكرية للحضارة الإنسانية التي تحققت بشق الأنفس، كما يمكنهم أن يهزؤوا باستمرار من «المعايير» بوصفها خدعة نخوية لاكتساب الثقة.

لقد قبلت المؤسسة التعليمية بالمكانة المقيدة التي مُنحت للمعرفة الفكرية. وقد فعلت ذلك عبر التعامل مع كل حصيلة لتجربة التعلم بوصفها معرفة. لقد قبل الوسط الأكاديمي بأن التبصرات العاطفية الذاتية والتدريب المؤدي إلى اكتساب المهارات ينبغي أن تصنف على أنها «معارف»، في حين أن منح الاعتمادية للتعلم السابق يضع المهارات الحياتية في مستوى المؤهلات الأكاديمية نفسه، ويضع التدريب المهني والمتعلق بالعمل بمستوى البحث الأكاديمي نفسه. كما يجادل رون بارنيت في كتابه تحقيق الجامعة: «إن المعرفة التي تنطوي على عمليات، والمعرفة الضمنية، والتعلم عبر الفعل، والتعلم عبر التجربة: كل هذه المصطلحات تشير إلى تعدد طرق المعرفة في العالم الحديث». إن تعدد الطرق المختلفة للمعرفة يحرم المعرفة الفكرية من أي قيمة فريدة.

لماذا تتكلف عناء العمل الشاق من أجل التعلّم في حين يمكنك اكتساب شيء من التعلّم عن طريق الخبرات التي تكتسبها في المقهى، وكذلك الحصول على الاعتمادية الرسمية لهذه الخبرات؟

يحاول المنظور الذي يركز على الطالب، كغيره من أشكال الرؤية النسبية للعالم، باستمرار أن يقصر المعرفة على الأشياء التي تنشأ من تجربة معينة. كما يذكي عداؤه للمعرفة الفكرية التي تتجاوز الخصوصية الإدراك بأن مكانته هو وسلطته هو تعتمد على الحظ من قيمة المعرفة المجردة. ويظهر نجاحه عبر النفوذ الذي اكتسبه في المؤسسة التعليمية بفروعها المختلفة. إن المعرفة الموضوعية لم تعد تتمتع بالمشروعية الثقافية القوية، لا داخل هذه المؤسسات ولا خارجها.

التسوية الأدواتية

بالرغم من تكثف النزعات التي تحاول أن تقيد سلطة المعرفة، فإن المجتمع لا يزال بحاجة إلى التبصر من أجل معالجة المشكلات المعقدة التي ما فتئت تظهر في عالمنا الذي يفتقر إلى اليقين. إن ثقافة الخوف التي تؤثر في موقف الجمهور حيال الابتكار والتجريب التكنولوجي يتعايش مع الطلب على المزيد من العلم والمعرفة.

الكاردينال نيومان، في كتابه الكلاسيكي «فكرة الجامعة» الذي وضعه دفاعاً عن الجامعة الليبرالية، لاحظ أن «المعرفة قادرة على أن تكون غاية ذاتها». غير أن فكرة المعرفة من أجل المعرفة نادراً ما تحققت في الواقع. لقد فرض على الجامعات وغيرها من المؤسسات



دائماً أن تنخرط في الضغوط التي تمارسها مصالح متصارعة ومسائل عملية. بالرغم من وجود علاقة متوترة، فإن تقدير المعرفة والاهتمام بتطبيقاتها العملية يمكن أن يتعايشا معاً. يمكن للأبحاث البحتة والتطبيقية، وللنظرية المجردة والتجريبية أن تزدهرا طالما بقيت سلطة المعرفة مقبولة في المجتمع. المشكلة اليوم لا تتمثل في الطلب البراغماتي على المعرفة العملية، بل في الضغوط الأداةية على إنتاج المعرفة التي نادراً ما يتم احتواؤها في السعي الأوسع للوصول إلى الفهم.

تتعايش الضغوط الأداةية على إنتاج المعرفة بسرور مع النزعات النكوصية التي ناقشتها آنفاً. لقد قامت الشركات الخاصة، والحكومات، ووسائل الإعلام، والجامعات بتمثل مزاج التشكك تجاه إرث التنوير. لقد تمثلت الموقف الحذر حيال تطور المعرفة واستسلمت لتأثير النسبية، خصوصاً على الثقافة والسياسة. لقد تم ترسيخ تسوية غير رسمية مؤداها أنه يمكن تطوير المعرفة في المجالات التي تكون فيها ضرورية من الناحية العملية. وقد أدى ذلك إلى نشوء تعايش قلق بين ادعاءات متنازعة في المعرفة. نتيجة لذلك فإن منتجي المعرفة ينبغي أن يتقاسموا السلطة مع مجموعات ضالعة في تقييد تطور العقل والعلم.

ما زال الناس بالطبع يسهمون في تطوير المعرفة. إلا أنه وفي عالم مدفوع بشكل كامل بالاهتمامات البراغماتية، فقد أصبحنا خلواً من أي قدرة على اتخاذ قرار جماعي حول كيف نقدر المعرفة وكيف نؤكد على أهميتها. عندما تقتقد المعرفة إلى المعنى فإنها لا تعود ملكاً للجمهور، بل ملكاً للمختص والخبير. إن تشظي الحياة الفكرية الذي يؤدي إلى



انتشار التخصصات ليس ببساطة استجابة للحاجة إلى الانخراط في العالم المعقد. ما يذكي نمو التخصص هو ثقافة لا يُشجع فيها المثقفون على النظر إلى الصورة الكبرى، بل يشجعون على العثور على المعنى في اختصاصاتهم. باتت النقاشات، وعلى نحو متزايد، تشير إلى الذات دون أن تكون مصممة للتواصل مع أو إشراك الناس الموجودين خارج مجال تخصص معين. في مثل هذه الظروف، تبدو المعرفة الموضوعية وكأن لها طبيعة تقنية، ويحل الخبراء والتقنيون محل أولئك الباحثين عن تبصرات أكثر عمقاً. لقد طورنا بدلاً من المعرفة نزعة لتطوير جملة من المعارف الجزئية.

إحدى المشكلات المرتبطة بالخبراء والمتخصصين ووسطاء المعرفة هي أن تبصراتهم تقتصر على اختصاصاتهم. إضافة إلى أنه ليس هناك دعم ثقافي لمشروع تحويل تلك التبصرات إلى خطاب عام أوسع. بالرغم من ذلك، فإن الواقع متعدد الأبعاد، ومعرفته تتطلب أن يتحدث المرء ويعمل عابراً مجالات وتخصصات مختلفة. لسوء الحظ، حتى في الجامعة فإن ضرورة التخصص تحول دون اكتساب المعرفة العامة التي تشكل شرطاً سابقاً لعمل المجتمع ذي التوجه المعرفي. في المحصلة، فإن تلاشي المعرفة العامة يؤدي إلى حرمان المجتمع من شبكة أوسع من المعنى العام.

إن الضغوط الثقافية القوية التي شجعت على ظهور نسخة ضعيفة من المعرفة السائدة اليوم تشجع أيضاً ظهور موقف فلسطيني تجاه حياة العقل. من شأن النزعة البراغماتية تجاه المعرفة أن تحد من الأضرار



التي تحدثها النزعات التي ناقشتها آنفاً. غير أن البراغماتية بعد ذاتها تحوّل الطاقات الفكرية بعيداً عن تحقيق الإمكانيات الكامنة؛ لإحداث تأثير مهم على الحياة العامة، وفي اتجاه هوس بالتخصصات الضيقة.

